

مظاهر القدوة
في
سيرة الإمام أبي حنيفة رحمه الله



د. عبدالعزيز بن سعد الدغيث

الألوكة
www.alukah.net

● ومما تقدم نجد أن من أشد مظاهر القدوة في شخصيته تصحيحه لمفاهيم مخالفه بالحوار الهادئ، ومن ما ورد عنه ما جاء في تاريخ بغداد حدثنا محمد بن فضيل الزاهد قال: سمعت أبا مطيع يقول مات رجل وأوصى إلى أبي حنيفة وهو غائب قال: فقدم أبو حنيفة فارتفع إلى بن شبرمة وادعى الوصية وأقام البينة أن فلانا مات وأوصى إليه فقال: له بن شبرمة يا أبا حنيفة احلف أن شهودك شهدوا بحق قال: ليس علي يمين كنت غائبا قال: ضلت مقاليدك يا أبا حنيفة قال: ضلت مقاليدي ما تقول في أعمى شج فشهد له شاهدان أن فلانا شجه على العمى يمين ان شهوده شهدوا بالحق ولا يرى.

وروى أيضا عن عبد الرزاق قال: شهدت أبا حنيفة في مسجد الخيف فسأله رجل عن شيء فأجابه فقال: رجل إن الحسن يقول كذا وكذا قال أبو حنيفة أخطأ الحسن قال: فجاء رجل مغطى الوجه قد عصب على وجهه فقال: أنت تقول أخطأ الحسن يا بن الزانية ثم مضى فما تغير وجهه ولا تلون ثم قال: إي والله أخطأ الحسن وأصاب بن مسعود.

● ومن مظاهر القدوة عدم اعتقاده أنه يملك الحقيقة المطلقة، وأن غيره من العلماء على خطأ، فقد جاء في ترجمته في تاريخ بغداد عن الحسن بن زياد اللؤلؤي يقول سمعت أبا حنيفة يقول قولنا هذا رأي وهو أحسن ما قدرنا عليه فمن جاءنا بأحسن من قولنا فهو أولى بالصواب منا. جهوده في رد البدع العقديّة:

لم يغفل الإمام أبو حنيفة جانب العقيدة، فقد كان له مع المبتدعة صولات وجولات، فله مناظرات معهم تدل على فهم سلفي وبعد عن البدع في الجملة.

روى الخطيب بسنده، عن يحيى بن نصر، قال: كان أبو حنيفة يفضل أبا بكر وعمر، ويجب علياً وعثمان، وكان يؤمن بالأقدار، ولا يتكلم في القدر، وكان يمسح على الخفين، وكان من أعلم الناس في زمانه وأتقاهم.

وعن أبي يوسف، عن أبي حنيفة، أنه قال: من قال: القرآن مخلوق فهو مبتدع، فلا يقولن أحدٌ بقوله، ولا يصلين أحدٌ خلفه.

وروى أن ابن المبارك قدم على أبي حنيفة، فقال له أبو حنيفة: ما هذا الذي دب فيكم؟ قال له: رجل يقال له جهم.

قال: وما يقول؟ قال: يقول القرآن مخلوق.

فقال أبو حنيفة: (كَبُرَتْ كَلِمَةً مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا).

وكان معلى بن منصور الرازي، يقلل: ما تكلم أبو حنيفة، ولا أبو يوسف، ولا زفر، ولا محمد، ولا أحد من أصحابهم في القرآن، وإنما تكلم بشر المريسي، وابن أبي داود^{٤٦}.

ومن أساليبه في محاربة البدع الاعتقادية وردّها تعليمه لتلاميذه السبيل إلى مناظرة المبتدعة، فقد روى ابن الجوزي في المنتظم بسنده عن أبي يوسف قال سمعت أبا حنيفة يقول إذا كلمت القدرى فإنما هو حرفان إما أن يسكت وإما أن يكفر يقال له هل علم الله في سابق علمه أن تكون هذه الأشياء كما هي فإن قال لا فقد كفر وإن قال نعم يقال له أفأراد أن يكون كما علم أو أراد أن يكون بخلاف ما علم فإن قال أراد أن يكون كما علم فقد أقر أنه أراد من المؤمن الإيمان ومن الكافر الكفر وإن قال أراد أن يكون بخلاف ما علم فقد جعل ربه متمنيا متحسرا لأن من أراد أن يكون ما علم أنه لا يكون أو يكون ما علم أنه يكون فإنه متمن متحسر ومن جعل ربه متمنيا متحسرا فهو كافر^{٤٧}.

وروى الخطيب في تاريخه"، أنه كان بالكوفة رجل يقول: عثمان بن عفان كان يهودياً. فأتاه أبو حنيفة، قال: أتيتك خاطباً لأبتك. قال: لمن؟

قال: لرجل شريف، غتي من المال، حافظ لكتاب الله، سخي، يقوم الليل في ركعة، كثير البكاء من خوف الله.

قال: في دون هذا مقنع يا أبا حنيفة. قال: إلا أن فيه خصلة.

قال: وما هي؟ قال: يهودي.

قال: سُبْحَانَ اللَّهِ، تأمرني أن أزوج ابنتي من يهودي.

٤٦ الطبقات السنية في تراجم الحنفية للغزي الترجمة الأولى.

٤٧ ترجمته في المنتظم ١٢٨/٨ - ١٤٤.

قال: لا تفعل؟ قال: لا.

قال: فالنبي صلى الله عليه وسلم زوج ابنته من يهودي!.

قال: أستغفر الله، فإني تائب إلى الله^{٤٨}.

وعن أبي الوليد الطيالسي قال: قدم الضحاك الشاري الكوفة، فقال لأبي حنيفة: تب.

فقال: مم أتوب؟ فقال: من قولك بتجويز الحكمين.

فقال: أبو حنيفة: تقتلي أو تناظري.

قال: بل أناظرك.

قال: فإن اختلفنا في شيء مما تناظرنا فيه، فمن بيني وبينك؟ قال: اجعل أنت من شئت.

فقال أبو حنيفة لرجل من أصحاب الضحاك: اقع بيننا فيما نختلف فيه إن اختلفنا.

ثم قال الضحاك: أترضى بهذا بيني وبينك؟.

قال: نعم.

فقال أبو حنيفة: فأنت قد جوزت التحكيم.

فانقطع الضحاك^{٤٩}.

وعن أبي يوسف، قال: جاء رجل إلى مسجد الكوفة يوم الجمعة، فدار على الخلق يسألهم عن القرآن، وأبو حنيفة غائب بمكة، فاختلف بمكة، فاختلف الناس في ذلك، والله ما أحسبه إلا شيطاناً تصور في صورة الإنس، حتى انتهى إلى حلقتنا؛ فسالنا عنها، وسأل بعضنا بعضاً، وأمسكنا عن الجواب، وقلنا ليس شيخنا حاضراً، ونكره أن نتقدم بكلام حتى يكون هو المبتدي بالكلام. فلما قدم أبو حنيفة تلقيناه بالقادسية، فسالنا عن الأهل والبلد، فأجبناه، ثم قلنا له بعد ذلك: رضي الله عنك، وقعت مسألة فما قولك فيها؟ فكأنه كان في قلوبنا، وأنكرنا، وظن أنه وقعت مسألة معنتة، وأنا قد تكلمنا فيها بشيءٍ فقال: ما هي؟ قلت: كذا وكذا. فأمسك ساكناً ساعة، ثم قال: فما كان جوابكم فيها؟ قلنا: لم نتكلم فيها بشيءٍ، وخشينا أن نتكلم فيها بشيءٍ فتنكره.

٤٨ الطبقات السنية في تراجم الحنفية للغزي الترجمة الأولى.

٤٩ الطبقات السنية في تراجم الحنفية للغزي الترجمة الأولى.

فسرى عنه، وقال: جزاكم الله خيراً، احفظوا عني وصيتي: لا تكلموا فيها ولا تسألوا عنها أبداً، انتهوا إلى أنه كلام الله عز وجل، بلا زيادة حرف واحد، ما أحسب هذه المسألة تنتهي حتى توقع أهل الإسلام في أمر لا يقومون له ولا يقعدون، أعاذنا الله وإياكم من الشيطان الرجيم^{٥٠}. إلا أنه رمي بمخالفته مذهب أهل السنة في باب الإيمان، وهو مفصل في شرح الطحاوية وكتاب الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى.

تعظيمه للنصوص:

كان أبو حنيفة من أشد المعظمين للنصوص، وقد جعل منهجه ولمن تبعه أن يقدم النص على كل قول، فقد روى نوح الجامع عن أبي حنيفة أنه قال ما جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم فعلى الرأس والعين وما جاء عن الصحابة اخترنا وما كان من غير ذلك فهم رجال ونحن رجال.

وقال وكيع سمعت أبا حنيفة يقول البول في المسجد أحسن من بعض القياس

وقال أبو يوسف قال أبو حنيفة لا ينبغي للرجل أن يحدث إلا بما يحفظه من وقت ما سمعه.

وقد أورد ابن الجوزي في المنتظم بعض القصص التي قد يفهم منها عدم أخذه بالنصوص، فمن ذلك قوله: سأل ابن المبارك أبا حنيفة عن رفع اليدين في الركوع فقال أبو حنيفة يريد أن يطير فيرفع يديه فقال له ابن المبارك إن كان طار في الأولى فإنه يطير في الثانية فسكت أبو حنيفة^{٥١}. وغيرها من القصص التي يرى الإمام رأياً ثم يرد نص أو فتوى صحابي فيرده بقول قد يفهم منه الرفض، ولذا فقد كانت تلك التصرفات تغضب مناظريه كثيراً، ولو أنه بين لهم وجهة نظره دون استشارة الخصم لكسب الجميع، ولكن الكمال عزيز، والله المستعان.

وليعلم أنه بتتبع المسائل التي ذكرها أهل العلم مما خالف فيها أبو حنيفة النصوص، فإن له رحمه الله تعالى عذراً يبينه لطلبته في مجلسه، وأما في مناظراته فلا يذكر حجته كاملة، ولذا نجد حجته مبينة في كتب أتباعه وأنه لا يمكن أن يرد نصاً قرآنياً أو عن المعصوم صلى الله عليه وسلم وهو يوقن ثبوته

٥٠. الطبقات السنية في تراجم الحنفية للغزي الترجمة الأولى.

٥١. ترجمته في المنتظم ١٢٨/٨ - ١٤٤.

وأنه محكم غير منسوخ. ولكن لا يمكن أن يلزم الإمام بالقول بنص لا يعتقد ثبوته، أو يرى نسخه والله أعلم.

ونجد أن ابن أبي شيبة في المصنف عقد كتابا أسماه: كتاب الرد على أبي حنيفة، ثم قال: هذا ما خالف به أبو حنيفة الأثر الذي جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم^{٥٢}.

كما نجد أن البخاري في صحيحه إذا أراد أن يرد على قول لأهل الكوفة وخصوصا أبي حنيفة يقول: "وقال بعض الناس... ثم يذكر قوله ويعقب عليه. قال ابن حجر: "قال بن التين المراد ببعض الناس أبو حنيفة قلت وهذا أول موضع ذكره فيه البخاري بهذه الصيغة ويحتمل أن يريد به أبا حنيفة وغيره من الكوفيين ممن قال بذلك قال بن بطال^{٥٣}. وفي صحيح البخاري سبع عشرة عبارة بلفظ: وقال بعض الناس، فهل في جميعها إشارة إلى أقوال أبي حنيفة رحمه الله. والمسألة ليست مطردة والله أعلم.

وقد ذكر ابن الجوزي في المنتظم، بعض المسائل التي خالف فيها أبو حنيفة صحيح الحديث^{٥٤}. وبالنظر في كل مسألة بعين الإنصاف نجد أن لأبي حنيفة عذرا في كل مسألة، وأسباب عدوله عن النص راجعة إلى ما يلي:

١. عدم صحة النقل إليه، لأن لأبي حنيفة شروطا في قبول الحديث زائدة عن شروط المحدثين فهو يشترط ألا يخالف الراوي ما رواه،

● فإذا ثبت خلافه لروايته فإن روايته غير معتبرة لوقوع الشك فيها، إذ كيف يتصور من صحابي أن يخالف حديثا جاء من طريقه وحده، فإما ألا يثبت نقل الحديث عنه أو يعلم أنه منسوخ، وكلاهما مانع من قبوله.

● وكذا إذا خالف الحديث الفرد عمومات الشريعة، ومقاصدها، وقد يطلق عليه: مخالفة الحديث الفرد للقياس الجلي.

٥٢ مصنف ابن أبي شيبة ٢٧٧/٧ - ٣٢٥ من الحديث رقم ٣٦٠٤٩ - ٣٦٥٣٤.

٥٣ فتح الباري ٣/٣٦٤.

٥٤ ترجمته في المنتظم ١٢٨/٨ - ١٤٤.

● وكما إذا كان راوي الحديث غير معروف بالفقه، لأن الفقيه يستطيع أن يعبر عن النص بمعناه الصحيح بخلاف غيره.

٢. أن يصح النقل إليه، ولكن يغلب على ظنه ما يمنع من العمل به بكونه منسوخاً أو مخصوصاً أو مقيداً.

ويضاف إلى ما سبق أن أبا حنيفة رحمه الله متقدم الوفاة، ولم تكن السنة قد جمعت وصنفت، ولذا فاته الكثير منها، كما أنه لم يكن متخصصاً في الحديث، ولذا لا نجد له في الكتب الستة إلا حديثاً واحداً في النسائي، وقد كان يذكر الحديث لغرض استنباط الفقه منه لا لغرض التحديث به. وليعلم أن الكوفة والتي هي بلدة أبي حنيفة لم تكن مشتهرة بالحديث بل كانت مليئة بطوائف البدع من الرافضة والمرجئة وغيرهم، ولذا نجد الإمام أبا حنيفة يتشدد في قبول الرواية لانتشار الكذب فيها.

روايات موضوعة في سيرته:

من المعروف أن المشاهير محور للشائعات والأخبار والقصص التي يلوکها الناس في مجالسهم، مما لا يتبينون صحتها. ولشهرة أبي حنيفة رحمه الله فقد ناله نصيب وافر من تلك الأساطير والحكايا والتي لا تثبت، والتنبيه عليها مما توجهه المحبة العظيمة لهذا الرجل والرغبة في تنقيح التاريخ الإسلامي من الحكايات المبنية على الإشاعات الكاذبة.

فمن تلك القصص ما رواه عن أبي حنيفة قال: لما أردت طلب العلم جعلت أتخير العلوم وأسأل عن عواقبها فقليل تعلم القرآن فقلت إذا حفظته فما يكون آخره قالوا تجلس في المسجد فيقرأ عليك الصبيان والأحداث ثم لا يلبث أن يخرج فيهم من هو أحفظ منك أو مساويك فتذهب رئاستك. قال قلت فإن سمعت الحديث وكتبته حتى لم يكن في الدنيا أحفظ مني قالوا إذا كبرت وضعفت حدثت واجتمع عليك هؤلاء الأحداث والصبيان ثم لم تأمن أن تغلط فيرموك بالكذب فيصير عارا عليك في عقبك فقلت لا حاجة لي في هذا. ثم قال قلت أتعلم النحو فقلت إذا حفظت النحو والعربية ما يكون آخر أمري قالوا تقعد معلما فأكثر رزقك ديناران إلى ثلاثة قلت وهذا لا عاقبة له قلت فإن نظرت في الشعر فلم يكن أحد أشعر مني قالوا تمدح هذا فيهب لك أو يخلع عليك وإن حرمك هجوته قلت لا حاجة فيه قلت فإن نظرت في الكلام ما يكون آخر أمره قالوا لا يسلم من

نظر في الكلام من مشنعات الكلام فيرمى بالزندقة فيقتل أو يسلم مذموماً. قال قلت فإن تعلمت الفقه قالوا تسأل وتفتي الناس وتطلب للقضاء وإن كنت شاباً قلت ليس في العلوم شيء أنفع من هذا فلزمت الفقه وتعلمته

وقد ردها الذهبي من وجوه متعددة، ففي سير أعلام النبلاء: من طلب العلم للرئاسة قد يفكر في هذا وإلا فقد ثبت قول المصطفى صلوات الله عليه أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه، يا سبحان الله وهل محل أفضل من المسجد وهل نشر لعلم يقارب تعليم القرآن كلا والله وهل طلبه خير من الصبيان الذين لم يعملوا الذنوب وأحسب هذه الحكاية موضوعة ففي إسناده من ليس بثقة.

وأيضاً فإن الإمام أبا حنيفة طلب الحديث وأكثر منه في سنة مئة وبعدها ولم يكن إذ ذاك يسمع الحديث الصبيان هذا اصطلاح وجد بعد ثلاث مئة سنة بل كان يطلبه كبار العلماء بل لم يكن للفقهاء علم بعد القرآن سواه ولا كانت قد دونت كتب الفقه أصلاً. ثم قال: وقاتل الله من وضع هذه الخرافة وهل كان في ذلك الوقت وجد علم الكلام.

ومن القصص التي تروى أن أبا حنيفة قال: كنت أنظر في الكلام حتى بلغت فيه مبلغاً يشار إلي فيه بالأصابع وكنا نجلس بالقرب من حلقة حماد بن أبي سليمان فجاءتني امرأة يوماً فقالت لي رجل له امرأة أمة أراد أن يطلقها للسنة كم يطلقها فلم أدر ما أقول فأمرتها أن تسأل حماداً ثم ترجع تخبرني فسألته فقال يطلقها وهي طاهر من الحيض والجماع تطليقة ثم يتركها حتى تحيض حيضتين فإذا اغتسلت فقد حلت للأزواج فرجعت فأخبرتني فقلت لا حاجة لي في الكلام وأخذت نعلي فجلست إلى حماد فكنت أسمع مسأله فأحفظ قوله ثم يعيدها من الغد فأحفظها ويخطئ أصحابه فقال لا يجلس في صدر الحلقة بجذائي غير أبي حنيفة فصحبته عشر سنين ثم نازعتني نفسي الطلب للرئاسة فأحببت أن أعتزله وأجلس في حلقة لنفسي فخرجت يوماً بالعشي وعزمي أن أفعل فلما رأيته لم تطب نفسي أن أعتزله فجاءه تلك الليلة نعي قرابة له قد مات بالبصرة وترك مالا وليس له وارث غيره فأمرني أن أجلس مكانه فما هو إلا أن خرج حتى وردت علي مسائل لم أسمعها منه فكنت أجيب وأكتب جوابي فغاب شهرين ثم قدم فعرضت عليه المسائل وكانت نحواً من ستين مسألة فوافقني في أربعين وخالفني في عشرين فأليت علي نفسي ألا أفارقه حتى يموت.

قال الذهبي: وهذه أيضا الله أعلم بصحتها وما علمنا أن الكلام في ذلك الوقت كان له وجود والله أعلم.

وذكروا أن أبا حنيفة رحمه الله صلى العشاء والصبح بوضوء أربعين سنة. وروى بشر بن الوليد عن القاضي أبي يوسف قال بينما أنا أمشي مع أبي حنيفة إذ سمعت رجلا يقول لآخر هذا أبو حنيفة لا ينام الليل فقال أبو حنيفة والله لا يتحدث عني بما لم أفعل فكان يحبي الليل صلاة وتضرعا ودعاء.

ومثل هذه الروايات عن الأئمة موجودة بكثرة، والتشكيك في ثبوتها له وجه، لاشتهار النهي عن إحياء الليل كله، وأبو حنيفة رحمه الله قد ملأ نهاره بالتعليم مع معالجة تجارته، فيبعد أن يواصل الليل كله. ولكن عبادة أبي حنيفة وطول قراءته أمر لا ينكر، بل هو مشهور عنه رحمه الله. فقد روي من وجهين أن أبا حنيفة قرأ القرآن كله في ركعة.

علاقته بالحكام:

ابتلي أبو حنيفة بالسلطة السياسية في وقته فقد جربوا معه فتنة المال وفتنة السجن فلم يهتز أو يتأثر، قال عبد الله بن المبارك: ما رأيت أحداً أروع من أبي حنيفة وقد جرب بالسياط والأموال.

وفد كان لأبي حنيفة مصادمات مع سلطة بني أمية ثم مع بني العباس، فقد كان يرفض الأوامر الخاصة كتوليته القضاء، وقد روي من غير وجه أن الإمام أبا حنيفة ضرب غير مرة على أن يلي القضاء فلم يجب. وسبب هذا الرفض أنه لا يريد إضفاء الشرعية على الحكم الأموي ثم العباسي المبتدئ بالدماء والقتل والظلم. فقد كان ابن هبيرة قد أراده على القضاء في الكوفة أيام مروان الجعدي فأبى وضربه مائة سوط وعشرة أسواط كل يوم عشرة وأصر على الإمتناع فخلى سبيله وكان الإمام أحمد إذا ذكر ذلك ترحم عليه انتهى^{٥٥}.

وقال إسحاق بن إبراهيم الزهري عن بشر بن الوليد قال طلب المنصور أبا حنيفة فأراده على القضاء وحلف ليلين فأبى وحلف إني لا أفعل فقال الربيع الحاجب ترى أمير المؤمنين يحلف وأنت تحلف قال أمير المؤمنين على كفارة يمينه أفدر مني فأمر به إلى السجن فمات فيه ببغداد.

وعن مغيث بن بديل قال دعا المنصور أبا حنيفة إلى القضاء فامتنع فقال أترغب عما نحن فيه فقال لا أصلح قال كذبت قال فقد حكم أمير المؤمنين علي أني لا أصلح فإن كنت كاذبا فلا أصلح وإن كنت صادقا فقد أخبرتكم أني لا أصلح فحبسه وروى نحوها إسماعيل بن أبي أوليس عن الربيع الحاجب وفيها قال أبو حنيفة والله ما أنا بمأمون الرضى فكيف أكون مأمون الغضب فلا أصلح لذلك قال المنصور كذبت بل تصلح فقال كيف يحل أن تولى من يكذب.

وقيل إن أبا حنيفة ولي له ففضى قضية واحدة وبقي يومين ثم اشتكى ستة أيام وتوفي.

وقال الفقيه أبو عبد الله الصيمري لم يقبل العهد بالقضاء فضرب وحبس ومات في السجن.

وفاة أبي حنيفة:

قال الذهبي: توفي شهيدا مسقيا في سنة خمسين ومئة وله سبعون سنة^{٥٦}.

وقيل إنما حبس لأنه تكلم في أيام خروج إبراهيم على المنصور فحبس ثم مات في السجن^{٥٧}.

وقال ابن العماد شذرات الذهب: وقد روى أن المنصور سقاه السم فمات شهيدا رحمه الله سمه لقيامه مع إبراهيم قاله في العبر وقال ابن الأهدل نقله المنصور عن الكوفة إلى بغداد ليوليه القضاء فأبى فخلف عليه ليفعلن فخلف أن لا يفعل وقال أمير المؤمنين أقدر منى على الكفارة فأمر به إلى الحبس وقيل أنه ضربه وقيل سقاه سما لقيامه مع إبراهيم الشبه بن عبد الله بن حسن فمات شهيدا وقيل أنه أقام في القضاء يومين ثم اشتكى ستة أيام ومات وكان ابن هبيرة قد أراده على القضاء في الكوفة أيام مروان الجعدي فأبى وضربه مائة سوط وعشرة أسواط كل يوم عشرة وأصر على الإمتناع فخلى سبيله وكان الإمام أحمد إذا ذكر ذلك ترحم عليه انتهى^{٥٨}.

٥٦ سير أعلام النبلاء ٦/٣٩٠-٤٠٣.

٥٧ ترجمته في المنتظم ٨/١٢٨ - ١٤٤.

٥٨ شذرات الذهب ١/٢٢٧ - ٢٢٩.

وقد عمل له جهلة محبيه ما لا يرضاه الله تعالى، بل كان الإمام أبو حنيفة من أشد المنكرين له، فقد بنوا على قبره قبة ومسجداً، وهو مسجد الإمام الأعظم في الأعظمية ببغداد. قال ابن الجوزي في المنتظم وقرأت بخط أبي الوفاء بن عقيل كان قبر أبي حنيفة عليه خربشة رأيتها وأنا صبي قبل دخول الغز ببغداد ثم عمل عليه بعض أمراء التركمان سقفاً ثم قدم شرف الملك في سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة فأحدث هذه القبة وكان قد وضع أساس مسجد بين يدي ضريح أبي حنيفة فهدم شرف الملك أبنية ذلك وما يحيط بالقبر وحفروا أساسات وكانوا يطلبون الأرض الصلبة فأخرجوا أربعمائة صن من عظام الموتى.

قال ابن عقيل فقلت ما يدريكم لعله قد خرجت عظامه في هذه العظام وبقيت القبة فارغة من مقصود بانيتها.

وأنبأنا علي بن عبيدالله عن أبي الحسين المهدي قال: لا يصح أن قبر أبو حنيفة في هذا الموضع الذي بنوا عليه القبة. وكان الحاج يرثون فيطوفون حول المقبرة يزورون أبا حنيفة لا يعينون موضعاً^{٥٩}.

وهذا يدل على أن تلك البدع في تعظيم قبره قد حدثت في قرون متأخرة، وقال ابن خلكان: وبني شرف الملك أبو سعد محمد بن منصور الخوارزمي مستوفي مملكة السلطان ملك شاه السلجوقي على قبر الإمام أبي حنيفة مشهداً وقبة، وبني عنده مدرسة كبيرة للحنفية، ولما فرغ من عمارة ذلك ركب إليها في جماعة من الأعيان ليشاهدوها،...، وكان بناء المشهد والقبة في سنة تسع وخمسين وأربعمائة، وقد تقدم في ترجمة ألب أرسلان محمد والد السلطان ملك شاه أنه بنى مشهداً على قبر الإمام أبي حنيفة، وكذلك وجدته في بعض التواريخ، وقد غاب عني الآن من أين نقلته، ثم وجدت بعد ذلك أن الذي بنى مشهداً والقبة أبو سعد المذكور، والظاهر أن أبا سعد بناهما نيابة عن ألب أرسلان المذكور، وهو كان المباشر كما جرت عادة النواب مع ملوكهم، فتسببت العمارة إليه بهذه الطريق، ويدل على ذلك أن تاريخ العمارة في أيام ألب أرسلان، أبو سعد كان مستوفياً في أيامه، ثم استمر على وظيفته في أيام ولده ملك شاه، وهذا إنما ذكرته لنجمع بين النقلين، والله أعلم^{٦٠}. وهذا كله منكر عظيم، ويا ويل من بنى المسجد والقبة على قبرٍ، لأنه معرض للعن والعياذ بالله. فقد

٥٩ المنتظم ١٢٨/٨ - ١٤٤.

٦٠ وفيات الأعيان.

ثبت في (الصحيح) عن عائشة رضي الله عنها أن أم سلمة ذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم كنيسة رأتها في أرض الحبشة وما فيها من الصور. فقال: (أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله).

ولهما عنها قالت: (لما نُزل برسول الله صلى الله عليه وسلم طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها، فقال - وهو كذلك -: ((لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)) يحذر ما صنعوا، ولولا ذلك أبرز قبره، غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً، متفق عليه.

ولمسلم عن جندب بن عبد الله قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت بخمس وهو يقول: (إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله قد اتخذني خليلاً، كما اتخذ إبراهيم خليلاً، ولو كنت متخذاً من أمي خليلاً، لاتخذت أبا بكر خليلاً، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك). ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً: (إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد).

وإزالة البناء على القبر متحتم شرعاً، لما في صحيح مسلم عن أبي الهياج قال: قال لي عليّ: (ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ألا تدع صورة إلا طمستها، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته).

وأخيراً...

إننا بحاجة إلى القراءة الواعية لسير أعلامنا الأفاضل ودراسة أسباب النجاح للعظماء، لنحذو حذوهم ونستنير بدارهم، سائلاً الله تعالى للجميع التوفيق في القول والعمل.